الأسرة .. وجنوح الأحداث

د. محمد سند العكايلة*

لا يختلف اثنان على أن الأسرة هي الخلية الأولى التي ينمو ويترعرع بين أحضانها الطفل، وهي الملقن الأول للطفل، حيث يتشرب منها ثقافة المجتمع وعاداته وقيمه وتقاليده ، ومنها يتعلم الأنماط السلوكية الخيرة والشريرة، وعن طريقها يعرف الفضيلة والرذيلة، والمبادئ الإنسانية السامية، ويتميز الإنسان عن سائر الكائنات الأخرى بأنه لا يستطيع الاستمرار في الحياة بدون إشباع حاجاته الفسيولوجية والاجتماعية والنفسية منذ نعومة أظفاره، وأن المجتمع يوكل هذه المهمة للأسرة متمثلة بالوالدين اللذين يعتبران قطبا الرحى في عملية التنشئة.

وتشمل حاجات الإنسان بالإضافة إلى النواحي الفطرية الحاجة إلى الحب، والحنان والعاطفة التي غالباً ما يكون مصدرها الأم، وكذلك فان الإنسان بحاجة إلى السيطرة والإشراف والتوجيه من الأب، ولا يمكن أن تكتمل الشخصية السوية المتكيفة مع المجتمع إلا إذا توافر هذان العنصران الأساسيان في مرحلة الطفولة المبكرة،

فالتصدع الأسري المادي والمعنوي يؤدي إلى فقدان أحد طرفي المعادلة إن لم يكن الاثنان معاً، وبالتالي يؤدي إلى فشل التنشئة الاجتماعية، ويسعى الحدث للبحث عن بديل يشبع حاجاته ورغباته، وغالباً ما يكون البديل هو الشارع، والتشرد، والضياع، والالتفاف على قرناء السوء والشر ليمثلوا البديل عن الأسرة.

إن الانهيار العاطفي داخل نطاق الأسرة والذي يتمثل بالشدة والصرامة والتسلط من قبل الأب في معظم الأحيان يؤثر سلبا في النمو النفسي للطفل، وفي لجوئه إلى ارتكاب أنماط السلوك العدواني والأفعال المنحرفة.

كذلك فان فساد أخلاق الأسرة وما يترتب على ذلك من قدوة سيئة للطفل بتقليده سلوك الأب المنحرف أو الأم الشاذة أو المنحلة أخلاقياً واتجاهه نحو الانحراف أو الإجرام.

ولا يمكن تجاهل أثر الظروف المادية السيئة والتي تشمل سوء الأحوال المعيشية والسكنية والصحية والتي لا تتناسب في العادة مع أسس التربية السلمية بما تمثله من اضطهاد وقهر لآدمية الإنسان، وعدم إشباع حاجاته الأساسية، والتي غالباً ما تكون عاملاً مهيئاً ودافعاً للانحراف.

وأخيراً وليس أخراً فإنه لا يخفى على أحد دور أنماط التنشئة الأسرية الخاطئه في تربية وتنشئة الحدث وما يترتب عليها من مثيرات محركة ودافعة للصغير للولوج في متاهات الانحراف وديا جير الإجرام في المستقبل .

وتنطلق أهمية الأسرة من كونها أول خلية ينمو ويترعرع فيها الحدث، ويقضي أولى وأهم سني حياته، وتتبلور معالم شخصيته الرئيسية من خلالها، فالحدث يتأثر سلباً أو إيجاباً بالوسط الأسري الذي يعيش فيه، فالأسرة الصالحة تعتبر علاجاً ناجحاً لمحاولات

الحدث للجنوح، أما الأسرة الفاسدة فهي عامل مشجع، وتربة خصبة لتنمية الميل نحو الجنوح عند الحدث.

يؤكد بعض العلماء والباحثين إن الطفل السوي عادة يأتي من أسرة سوية، ذلك إن الوالدين لهما دور كبير في انحراف الحدث، لا سيما إذا عاش في بيئة زاخرة بالشقاق والنزاع المستمر، وتفتقر إلى أدنى مقومات الأمن والاستقرار ودفء العاطفة.

وفي ظل التغيرات الكثيرة والمتتابعة نتيجة التأثيرات الحضارية المختلفة، فقد وهنت العلاقات المادية والمعنوية بين أفراد الاسرة وضعفت أواصرها، وأصبحت هشة وعرضة للانهيار أكثر من السابق، وهذا ينعكس على الأحداث الذين قد يقعون صيداً سهلاً لعوامل الانحراف وشرور الإجرام.

ولا يجوز للأسرة أن تكتفي بتعليم أطفالها القواعد السلوكية السوية والمبادئ الفضلى والقيم الحميدة فحسب، بل يجب عليها أن تحمي الحدث من الانقياد وراء الأنماط السلوكية الشاذة.

إن الطفل في أول مراحل حياته يكون شديد التأثر والتعلق بأهله، وعلى الأخص والديه، ويكون كذلك شديد الحساسية، ومؤهلاً لاستقبال والتقاط أي فكرة او قيمة أو نمط سلوكي من الوالدين، ويمتاز الطفل كذلك بسرعة انفعاله، وضعف إرادته، وقلة خبرته، لهذا فان الأسرة التي تعمل على إشاعة المحبة، والثقة، والتفاهم، والقيم الطيبة، وتحتفظ بقدر كاف من التوازن بين التقييد والحرية داخل وسطها،هي الأسرة التي تدفع للمجتمع بأحداث أسوياء،راشدين، سعيدين، ويسعد المجتمع بهم. ولا شك أن تفسخ المجتمع وتشتته يعني بطبيعة الحال تفسخ الأسرة بالأصل، لهذا فإن التشريعات الحديثة قد سنت التشريعات التي تضمن حماية الأحداث عن طريق رفع شأن ومكانة الأسرة من أجل تأمين إشباع حاجاتهم، وتوجيههم الوجهة السليمة.

وتحيط بكل بيت مجموعة من الظروف والعوامل تتحد مع بعضها لتشكل أجواء خاصة من الناحية الأخلاقية والاجتماعية والثقافية، والعاطفية، وتترك هذه الأجواء بصمات واضحة في حياة الأحداث الحاضرة والمستقبلية تبدو من خلال طريقة تعاملهم مع الأحداث

التي تجابههم، ومن خلال طريقة تكيفهم مع ظروف الحياة داخل البيت وخارجه ومن هذه الظروف.

الجو العاطفي داخل الاسرة

يعتبر الجانب الأسري داخل محيط الأسرة من أهم الجوانب التي تؤثر في شخصية الحدث وأسلوب تكيفه، فالحب الدافئ، والعاطفة الصادقة التي يتلقاها الحدث من خلال تفاعله مع أسرته أمور من شأنها أن تعزز من مكانته، وثقته بنفسه، واستقراره، وتنمي لديه النواحي الإيجابية الخلاقة تجاه الحياة وقدرته على مجابهة الأمور الصعبة كما يجابه الأمور اليسيرة على حد سواء.

أما إذا استبدلت العاطفة والحب بالكراهية والنبذ والنفور، فإن حياة الطفل تصبح متوترة ومشحونة بالمآسي والآلام، ويبدأ الطفل بتكوين فكرة سلبية تجاه أسرته بشكل خاص، وتجاه المجتمع بشكل عام. ولقد أوضحت دراسات عديدة أن الكراهية والنظرة السوداء للحياة والمجتمع عند الراشدين ترتبط بضعف الجو العاطفي في الأسرة التي نشأ وتربى فيها هذا الحدث، ومن جهة أخرى فقد وجد أن هناك ارتباطاً بين السلوك الاجتماعي أو الميل إلى العدوان الاجتماعي عند الكبار وبين ضعف عاطفة المحبة والحنان في الأسر التي عاشوا فيها وهم صغار. كما أن مظاهر الحاجة إلى المحبة التي تبدو عند بعض الأحداث والراشدين ترتبط ارتبطاً وثيقاً بنقص المحبة داخل الأسرة خلال المراحل العمرية الأولى من حياة الطفل، وأن هذا الضعف أو النقص في المحبة هو الذي يجعل زوجاً ما نشأ في مثل هذا الجو يرضخ ويستسلم لزوجته حين يشعر إنها توفر له عاطفة الأم وعاطفة الزوجة في آن واحد.

إن آثار الجو العاطفي تبدو على الإنسان في جميع مراحل حياته. فتظهر آثار العاطفة على التلميذ في المدرسة حين يتعامل مع زملائه، وتبدو عليه إمارات التعلق الشديد بالأسرة والمجتمع والإنسانية بوجه عام، وأن توفر الجو العاطفي للحدث يعوِّضه عن أوجه التعقيد الأخرى التي قد تسود الوسط الأسري.

الجو الأخلاقي للأسرة

ونعني بالجو الأخلاقي للأسرة مجموعة القيم الاجتماعية

والسلوكية والمبادئ الأخلاقية التي تحكم الوسط الأسري وتسوده، ويمتثلون لها صغاراً وكباراً.

وكذلك أشكال السلوك التي يتطلع إليها المجتمع ويطلبها من أفراده وان هذا الجو يترك آثاراً واضحة لدى الأحداث، بعضها يكون موافقاً للجو الأسري والبعض الآخر يكون مغايراً له،وأن أكثر الحالات التي يوجد فيها الاختلاف عندما يكون الجو الأسري مشبعاً بالتطرف والمغالاة فيما يؤمن به الكبار، فقد يؤمن الوالدان بالقيم النبيلة ويتمسكون بها لدرجة التعصب. فينمو الحدث متزمتاً متعصباً ضيق الحدود في تصرفاته وأفكاره أمام الأفعال التي لا تتطابق بشكل جيد مع الجو الذي تربى فيه، وقد ينهج الطفل نهجاً معاكساً لقيم ومبادئ الأسرة نتيجة صعوبة وتعقيد هذه القيم والمبادئ، فيسير وفق أهواء رفاقه، إما إذا أخذنا الوجه الآخر للتطرف وهو البيت اللاأخلاقي فأننا نجد أنه من اكثر المعوقات والموانع التي تقف سداً منيعاً في وجه التكيف الاجتماعي الإيجابي للأبناء وقد بيّنت إحدى الدراسات أن واحداً من كل خمسة من الأحداث الجانحين الذين درسهم قد انحدر من أسرة كان أحد الوالدين أو كلاهما يتصرفان بطريقه لاأخلاقية.

الجو الاقتصادي للأسرة

ويشمل الجو الاقتصادي للأسرة المستوى المعيشي للأسرة، وما تنفقه على أبنائها، وكذلك مستوى دخل الفرد، ولا شك إن

الضغط الاقتصادي يترك آثاراً سلبية على الابناء في الأسر الفقيرة كالشعور بالحرمان وعدم الطمأنينة، والشعور بالنقص تجاه الآخرين، فالطفل الذي يعاني من الجوع والبرد يكون ميالاً إلى القلق وعدم الطمأنينة ويتولد لديه شعور بالنقص والحرمان خاصة عندما يرى أقرانه يلبسون ويأكلون بدرجة أفضل منه بكثير، أو عندما يقسو عليه المعلم في الكلام نتيجة عدم امتلاكه حقيبة الكتب أو دفع بعض النقود للمدرسة دون أن ينتبه المعلم إلى وضع الطالب الاقتصادي مثلاً.

كذلك يتضمن الوضع الاقتصادي كثرة أو ازدحام سكان البيت، مما يساعد في خلق جو متوتر نتيجة عدم توفر الخصوصية، وأن من شأن الاكتظاظ أن يساعد في تشكيل عادات غير محببة عند الأبناء وكثيراً من أنماط السلوك غير الاجتماعي التي تزيد نسبتها عند الأسر الفقيرة على نسبتها من الأسر التي تعيش في بحبوحة من العيش.

إن توفر الظروف الاقتصادية بشكل جيد تهيئ الجو المناسب للإنفاق، وكذلك تؤمن شروط ومستلزمات النمو المناسبة للأبناء، ولكن المغالاة والإسراف في الإنفاق قد يؤدي إلى نتائج سلبية لا تقل خطورتها عن خطر التقصير في الإنفاق، فقد يؤدي الإسراف في الإنفاق إلى ضعف مسؤولية الأبناء تجاه ما ينفقون، أو قد يؤدي إلى التعالي واللجوء إلى شراء الأصدقاء، واتباع الأساليب الفاسدة كالرشوة مثلاً، أو تكوين الصداقات المشبوهة، فإذا كان الفقر كافراً أحياناً فإن التخمة قتاله أحياناً أخرى.

الجو الثقافي للأسرة

ويتضمن الجو الثقافي للأسرة مجموعة الظروف الموجودة داخل الوسط الأسري والتي تسهم في تكوين اللغة والفكر البناء، ويشمل كذلك توافر الكتب والمجلات والصحف ووسائل اللعب المختلفة، وكذلك مصادر ووسائل الإعلام، ونلاحظ إن بعض الأسر تعمل على توفير الظروف الثقافية المناسبة للأبناء، وتبعد عنهم القصص والكتب المنحرفة والتي تعمل على إفساد أخلاقهم وأفكارهم، وكذلك فإن بعض الأسر تحرص على أن يكون الجو الثقافي للأسرة غنياً وحراً، وتتدخل الأسرة في الأمور الثقافية عن طريق التوجيه والإرشاد البناء، وفي المقابل نجد أن هناك بعض الأسر التي تهمل هذا الجانب كلياً.

والواقع أنه يمكن فهم الجو الثقافي للأسرة من خلال الاعتدال أو الجدية المتطرفة لهذا الشأن. فتلاحظ إن بعض الأسر تصر وبقوة على ضرورة القراءة والمطالعة، وقد يؤدي هذا إلى إغراق الابن وإبعاده عن الواقع، وصعوبة التكيف مع هذا الواقع، أما الطرف الآخر من الجدية فيتمثل في الاستهانة والسخرية بالابن، والاستخفاف به عندما يتجه للأمور الثقافية، وهنا يبدو التناقض واضحاً بين المدرسة والبيت، وينجم عن ذلك صراع بين احترام الإبن للبيت وأفراده واحترامه للمدرسة والكتاب، وإن مثل هذه الأخطار في التكيف تكون بسبب الجو الثقافي الذي يقف منه الأهل

في البيت موقفاً سلبياً.

إن وجود وتوافر الجو الثقافي المعتدل هو الجو الذي يكون في مصلحة النمو الثقافي المناسب للطفل حيث يجد الاهتمام من قبل الأهل بما يقرأ او يفكر به من غير تسلط ولا إهمال.

الجو السكني للأسرة

ويقصد بذلك توافر الشروط الطبيعية الجيدة للمسكن، بحيث لا تؤثر على النواحي الصحية والجسدية للأبناء، فالطفل بطبيعته حساس لكل شيء يجري في أروقة البيت،من حيث وضعية الغرف، وعددها، واتساعها، وطريقة ترتيبها ، وطريقة تهوية البيت، وموقعه، ونوعيته سواء كان منزلاً مستقلاً، أم شقة أم بيت شعبي أم بيت مخيم، وتظهر هذه الحساسية عندما يتبادل الابناء من الأحداث الزيارات مع أصدقائهم، ويتحدث كل منهم عن طبيعة بيته، وتتجلى هذه الحساسية في فترة المراهقة على وجه التحديد، لأن المراهق يحب أن يكون بيته الذي يأوي إليه ويسكن فيه على احسن حال حتى يفتخر به أمام أصدقائه.

إن المسكن الفخم يواجه الحدث في بعض الأحيان بظروف تكيف غير مناسبة، لأن كل شيء فيه ثمين ومنتظم، ويتطلب هذا من الحدث ضرورة المحافظة على كل شيء يحويه هذا البيت، والحرص على كل شيء، ونتيجة لذلك يصبح الطفل كبيراً في وقت مبكر، ويشعر بكثير من المعوقات التي يرى أنها تحد من فعالياته حسب وجهة نظره سيما وأنه في هذا السن يكره التقييد والضبط، ويحب

الانطلاق والحرية، أما المسكن السيئ من حيث الإنشاء والتصميم والبناء فانه قد يسبب للابن نوعا من الحرج والضيق والقلق والاضطراب أمام أقرانه الذين يمكن أن يكونوا أوفر منه حظاً في منازلهم، كما أن موقع البيت قد يفرض على الحدث الارتباط بصداقات معينة ومن بيئة واحدة قد لا تكون ملائمة لحسن نموه وتكيفه.

وعلى الرغم من كل ما تقدم فقد نجد إن هناك مساكن وبيوت تقع في أحياء شعبية فقيرة ولأسر فقيرة، وتكون هذه المساكن على درجة عالية من الترتيب والنظافة والتنظيم بحيث تجلب الراحة النفسية والسعادة وتبعث على الطمأنينة للحدث، وتؤثر في شخصية الحدث، وتبعده عن شبح الجريمة والانحراف.

الجو الأسري المشحون بالخلافات والمنازعات

وتتضمن المشاحنات والخلافات والمنازعات الأسرية التي تقع بين الوالدين بجميع أشكالها كالسلوك الكلامي والحركي متعدد الأنواع والتي تخلق في البيت بشكل أو بآخر جواً من التوتر والقلق والاضطراب النفسي بحيث يؤثر تأثيراً كبيراً في حياة الأبناء، على إن غالبية البيوت تقع فيها الخلافات والمشاحنات ولكنها لا تدوم طويلاً، ولا تخرج عن حدود المناقشة المنظمة المهذبة، بحيث تنتهي هذه الخلافات بالتسامح والتصافي، وبهذه المناسبة فلا بد من أن يبتعد الوالدان في مناقشاتهما عن الأبناء ، حرصاً على حسن التنشئة وحفاظاً على التربية المتوازنة، وإن كانت بعض المشاحنات التي تحصل بين الأزواج تدور على مرأى ومسمع الأبناء، ولا تقف عند هذا الحد، بل قد تتجاوزها إلى حد السب والشتم، أو قد تتطور الأمور وتتفاقم إلى حد الضرب والإيذاء، ولأن الأصل أن الابناء يحبون الأب والأم على حد سواء فانهم قد يقفون حيارى أمام مثل هذه المشاحنات الحادة ، بحيث لا يعرفون كيف يتصرفون، والى أي جانب أو طرف ينحازون، ثم ينتاب الابناء شعور بالقلق والاضطراب والصراع النفسي أمام هذه المواقف، ويضطر الأبناء في نهاية المطاف إلى كبت ودفن مشاعرهم، وعدم الإفصاح عنها للآخرين أو لأصدقائهم، حتى لا يعرفون ما يجري وما يدور داخل بيتهم ولا شك أن الخلافات والمشاحنات التي تعصف بالوسط الأسري تعتبر من أشد الأجواء تأثيراً في نفسية وشخصية الحدث، وتبقى ذكرى هذه الخلافات عالقة في ذهن الحدث وتلازمه طيلة حياته، وان اصطدام الحدث ومواجهته للخلافات والمنازعات الأسرية تعتبر من الأمور الصعبة والخطيرة في حسن التكيف للأبناء، فإذا ما أدت هذه المشاحنات إلى الانقطاع الكامل أو الانفصال أو الهجر بين الوالدين أصبح البيت مظلماً متصدع الأركان وغدا جحيماً لا يطاق في نظر الابناء، وبعد ذلك تبدأ مشاكل الأحداث تأخذ أبعاداً وأشكالاً كثيرة كالتشتت، والاضطراب، والحرمان والضياع، والانطواء، والانسحاب، والتشرد، وكل هذا يعتبر مقدمة حقيقية للجنوح والانحراف.

---

* مديرية الأمن العام ـ الأردن■